

إضاءة تاريخية وآثارية حول مسجد الصحابي عبد الله بن السرح في دنقلا

مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر

د. عوض شبا

مستخلص:

تهدف هذه الورقة إلى إلقاء الضوء على الجدل الدائر حول المسجد الذي ورد ذكره في أحد بنود اتفاقية البقط الشهيرة، والذي تزعم بعض الروايات التاريخية وجوده في أطراف مدينة دنقلا. وقد تتبعت الدراسة هذه الروايات التاريخية، وقارنتها بنتائج الدراسات الأثرية، وخلصت إلى عدم وجود أي معالم أو بقايا أثرية للمسجد المذكور، الذي اشتهر في بعض المصادر باسم مسجد الصحابي عبد الله بن السرح، حتى الوقت الحاضر.

Historical and archaeological insights into the mosque of the companion Abdulla bin Al-Sarh in Dongola

Dr. Awad Shaba

Abstract:

This paper aims to shed light on the ongoing debate surrounding the mosque mentioned in one of the clauses of the well-known Baqt Agreement, which some historical narratives claim was located on the outskirts of the city of Dongola. The study traces and critically examines these historical accounts and compares them with the results of archaeological research. It concludes that, to date, no architectural features or archaeological remains have been identified for the aforementioned mosque, which is referred to in some sources as the Mosque of the Companion 'Abd Allāh ibn Abī al-Sarḥ.

تمهيد:

تُعرف مدينة دنقلا في بعض المصادر العربية باسم دنقلة أو دمقلة، كما يُعرف محلياً باسم تُوُقُل (Togol). وتقع دنقلا على الضفة الشرقية لنهر النيل بين الشلالين الثالث والرابع، عند دائرة عرض (21° 21' 21" شمالاً) وخط طول (30° 10' 11" شرقاً). وقد تأسست المدينة كمركز حضري منذ فترة ما بعد مروى، حيث برزت كمركز إداري وتجاري وعسكري، وتشير المعالم الأثرية، من بينها السور الحجري حول المدينة والتي تعود إلى القرن الخامس الميلادي أهميتها⁽¹⁾، (خريطة رقم 1).

أصبحت دنقلا عاصمة مملكة المقرة المسيحية، ولاحقًا في القرن الثامن الميلادي أصبحت عاصمة المملكة النوبية المتحدة، ما أكسبها أهمية سياسية وثقافية كبيرة في وادي النيل الأوسط. ومع توسع الإسلام في شمال أفريقيا وسيطرة العرب المسلمين على مصر، بدأ النفوذ الإسلامي يمتد جنوبًا، وانخرطت الممالك النوبية في صراعات انتهت باتفاقية شهيرة تُعرف باسم البقط، والتي تضمنت الإشارة إلى العناية بالمسجد الموجود في فناء المدينة.

هذا المسجد، المعروف باسم مسجد المعاهدة أو مسجد أب سرح، نسبة إلى الصحابي عبد الله بن أبي السرح، أثار جدلاً بين الباحثين حول:

- تاريخ إنشائه ومتى بُني بالفعل.
- الموقع الدقيق لإنشائه ضمن المدينة.
- صحة الآراء التي تنفي وجوده.
- الأدلة الأثرية المؤكدة على وجوده .

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة حسم هذا الجدل التاريخي حول هذا المسجد، من خلال استعراض الروايات التاريخية ونتائج الدراسات الأثرية التي تمت في الموقع المزعوم للمسجد.



خريطة رقم (1)، توضح موقع مدينة دنقلا⁽²⁾

اتفاقية البقط والتواصل مع مصر الإسلامية:

بعد الفتح الإسلامي لمصر في منتصف القرن السابع الميلادي، حاول المسلمون التمدد جنوبًا نحو بلاد النوبة، وخاضوا عدة معارك ضد النوبيين، إلا أنهم لم يتمكنوا من هزيمتهم. وانتهت هذه الصراعات باتفاقية شهيرة عُرفت باسم اتفاقية البقط، التي استمرت حوالي ستة قرون، وحددت الملامح العامة للعلاقات بين مصر الإسلامية والممالك النوبية المسيحية. ويُرجح أن توقيع الاتفاقية كان في عام 652م.

أشارت العديد من المصادر العربية إلى هذه الاتفاقية وإلى المعارك التي دارت بين الطرفين. فقد روى البلاذري (ت 892م) عن شيخ من حمير قوله: (شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب، فلم أرَ قوماً أحد في الحرب منهم. لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم: أين تحب أن أضع سهمي منك؟ فرمى عبث الفتى منا، فقال في مكان كذا فلا يخطئه. كانوا يكثرون الرمي بالنبل، فما يكاد يُرى من نبلهم في الأرض شيء، فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف، فما قدرنا على معالجتهم، رمونا حتى ذهبت الأبصار، فعددت مئة وخمسين عينًا مفقودة، فقلنا: ما لهؤلاء خير من الصلح، إن سلبهم لقليل وإن نكايتهم لشديدة. فلم يصلحهم عمرو، ولم يزل يكالهم حتى نزع وولى عبد الله بن سعد بن أبي السرح)⁽³⁾. وفي رواية أخرى، يصف البلاذري مهارة النوبيين في الرمي: (فلقي المسلمون بالنوبة قتالًا شديدًا، لقد لاقوهم فرشقوهم بالنبل حتى جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدث مفقوءة، فسموا رماة الحدق)⁽⁴⁾.

وقد وصف شاعر هذه المعركة في نص شعري، أورده ابن عبدالحكم بقوله:

لم ترى عيني مثل دمقلة

والخيل تعدو بالدورع مثقلة

ترى الحماة حولها مجندلة

كأن أرواح الجميع مهملة⁽⁵⁾

أما عن معنى كلمة البقط، فقد اختلف الباحثون حول أصلها، وطرحت ثلاثة تفسيرات رئيسية:

الأول: أنها كلمة عربية من قولهم «بقط» بمعنى نبد أو قطعة، تشير إلى جزء من المال أو البضاعة.

الثاني: أنها كلمة لاتينية الأصل مشتقة من (Pactum) وتعني اتفاقية أو معاهدة، ويقال أيضًا إنها كلمة مصرية قديمة بمعنى ضريبة أو معاهدة.

الثالث: أنها كلمة نوبية أصلها دنقلاوي، وما زالت متداولة محليًا، وتنطق بقت (Pagit)، وتعني القسمة أو الجزء، وغالبًا ما تُستخدم في المعاملات التجارية والزراعية وتربية المواشي⁽⁶⁾. من الواضح أن الاتفاقية نظمت العلاقات السياسية والاقتصادية بين الطرفين، وركزت على نقطتين أساسيتين:

الأولى: إيقاف القتال وإقرار الهدنة.

الثانية: مبادلة الرقيق بالمؤن الغذائية.

ومن هذه الإشارات ما أورده ابن عبد الحكم (ت 871م): (قال ابن أبي حبيب: إن عبد الله صالحهم على هدنة بينهم على أن لا يغزوا المسلمين، ولا يغزو المسلمين النوبة، وأن النوبة يؤدون إلى المسلمين كذا وكذا من السبي، وأن يؤدي المسلمون من القمح كذا وكذا ومن العدس كذا وكذا في كل سنة) (7).

أما المقريزي (ت 1445م) فقد أفرد تفاصيل كثيرة للاتفاقية بعد حوالي سبعة قرون من وقوعها، حيث ورد فيها:

1. دخول رعايا كل طرف من الطرف الآخر دون إقامة.
2. حفاظ النوبيين على أرواح المسلمين والمعاهدين داخل بلدهم أو طرفه.
3. إعادة كل العبيد الفارين من طرف المسلمين.
4. المحافظة على المسجد الذي أنشأه المسلمون في فناء المدينة.
5. دفع النوبيين سنويًا 360 رأسًا من الرقيق للإمام المسلمين.
6. عدم إلزام المسلمين بالدفاع عن النوبة إذا تعرضت لأي اعتداء خارجي (8). (المقريزي، 1972: 301-302).

ويرى بعض الباحثين أن نص الاتفاقية الذي أورده المقريزي، في الواقع هو مجموعة من الاتفاقيات أو تعديلات على مدى عدة مراحل تاريخية حسب المستجدات السياسية، بين الطرفين، وكان أساسها إتفاقية البقط جمعها ورتبها بعد ثمانمائة عام من الحدث، ومنها ما يتعلق بالذميين والدفاع المشترك، وكذلك أن لقب «الإمام» المذكور في الاتفاقية كان خاصًا بالشيعة، وربما يشير إلى اتفاق بين ملك النوبة والدولة الفاطمية الشيعية في مصر (969-1171م)، (9). وقد ذهبت بعض الآراء أيضاً إلى اعتبار دنقلا عاصمة المملكة ومقرًا لملوك النوبة، واعتُبرت المعركة المذكورة قد دارت بالقرب منها، إذ وصلت الحملة الإسلامية إلى أبوابها، وأن المسجد المذكور في الاتفاقية تقع في فنائها. غير أن بعض الدراسات الحديثة تشير إلى أن الجيوش العربية الإسلامية لم تصل إلى دنقلا، حيث كانت مملكة نوباتيا موجودة في الشمال ولم تتحد بعد مع مملكة المقرة، استنادًا إلى الرأي القائل بأن الاتحاد تم في أوائل القرن الثامن الميلادي. كما أن المصادر التاريخية لم تذكر صراحة تجاوز الجيوش لمملكة نوباتيا أو وقوع أي معارك بالقرب من دنقلا (10).

مسجد عبدالله ابن السرح بين الروايات التاريخية والدراسات الأثرية:

جاءت أقدم الإشارات إلى مسجد عبد الله بن أبي السرح- كما بينا- ضمن بنود الاتفاقية التي أوردها المقريزي. وفي إطار فعاليات الاحتفال بالقرن الخامس عشر للهجرة في السودان، قام فريق أثري من جامعة الخرطوم بزيارة مدينة دنقلا لإجراء مسح أثري لموقع مسجد عبد الله

بن أبي السرح المذكور في الاتفاقية. وأشارت بعض الروايات الشفاهية إلى موقع المسجد شمال شرق المبنى الملكي في منخفض صغير، ووصف الفريق المبنى بأنه مربع الشكل، طول ضلعه حوالي خمسة أمتار، وقد دفنته الرمال وركام المدينة، ولم يبق منه سوى حوالي متر ونصف من السور. وكان البناء مكوّنًا من حجارة رملية سوداء وطوب أحمر مأخوذ من بناء أقدم، وسقف متهدم مصنوع من جريد النخل. وعلى جانب القبلة وُجد محراب على رأس عمود خشبي مستطيل، به نافذة صغيرة يتدفق منها شعاع الشمس عند الشروق. وبشكل عام، تختلف طريقة البناء هذه كليًا عن بناء الكنائس والمباني في دنقلا في تلك الفترة⁽¹¹⁾.

وفي عام 1981م، قامت الهيئة القومية للآثار بدراسة أثرية لنفس الموقع، وأفادت النتائج بما يلي: الغرفة التي أُجريت حولها الدراسة والحفريات ليست مسجد عبد الله بن أبي السرح، إذ بُنيت فوق مقابر مسيحية تعود إلى العهد المسيحي المبكر، ومن غير المتوقع أن يُبنى مسجد فوق مقابر مسيحية؛ والفترة الزمنية للبناء تعود إلى وقت لاحق لاتفاقية البقط، واستخدمت مواد بناء قد تكون جُمعت من مبانٍ مسيحية مجاورة محطمة تعود إلى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر الميلادي، وُجد في المبنى حجر من المرمر يحمل كتابة يونانية تُؤرخ لعام 854م، وكذلك وُجد وسط الغرفة مقبرة إسلامية، مما يرجح أن الغرفة كانت قبرًا لرجل صالح أو خلوة خاصة لممارسة عبادته ونسكه أثناء حياته، ويؤكد ذلك المدخل الضيق جدًا للغرفة، الذي يسمح بمرور شخص واحد بصعوبة، وهو تقليد شائع في دنقلا في تلك الفترة، حيث يُدفن صاحب الغرفة بعد وفاته فيها⁽¹²⁾.

إن نتائج هذه الدراسة تلفت إنتباهنا بضرورة التعامل مع الروايات الشفاهية بحذر شديد وفق الضوابط العلمية والمنهجية، وعدم الاعتماد على الرواية التاريخية أحادية المصدر كحقيقة تاريخية. كما ترجح الدراسة الأثرية الآراء التي شككت في نص الاتفاقية الذي أورده المقريري، مما يجعل من الصعوبة التأكيد على وجود جالية إسلامية تمارس شعائر عبادة في دنقلا، عاصمة مملكة المقرية المسيحية، في تلك الفترة. وتجدد الإشارة إلى أن المصادر الإسلامية لم تورد وصفًا واحدًا للمدينة في تلك الفترة، ويعود أول وصف موثق للمدينة إلى بدايات القرن العاشر الميلادي على لسان أحمد بن سليم الأسواني. وبناءً على ذلك، ربما كان الموقع كما أشارت بعض الروايات الشفاهية بأنه مسجد ملحق بمنزل الملك النوبي عبد الله برشمبو، أول ملك مسلم لمدينة دنقلا (13) (صورة رقم 1)، ونلاحظ أن خلط البعض بين مسجد عبد الله بن أبي السرح المشار إليه وبين مسجد الملك النوبي عبد الله برشمبو لذا لا بد من توضيح موجز.



صورة رقم (1)، مسجد عبد الله بن أبي السرح (المعاهدة) المزعوم (14)

مسجد الملك النوبي عبد الله برشمبو:

يُعدّ مسجد الملك النوبي عبد الله برشمبو والمعروف بمسجد دنقلا من أكثر معالم المنطقة تميّزًا، وكان في الأصل هو القصر الملكي كما تشير معظم الفرضيات التاريخية والآثرية، ولكنى أطلق عليه المبنى الغامض لعدم وجود بينات واضحة تؤكد حقيقة هذا المبنى حتى الآن، وهو من أقدم المساجد في السودان. يقع المبنى على نتوء من الحجر الرملي، ويتكوّن من طابقين، وقد سُيّد في الأصل ككنيسة في القرن التاسع الميلادي، وزيّنت جدرانها برسوم جدارية مسيحية؛ تم تحويل الطابق الأول من المبنى إلى مسجد عام 1317م (717هـ)، وفقًا لما ورد في نقش على اللوحة الحجرية (من الرخام) الموضوعة بجوار المحراب، يتميّز المبنى بكونه الوحيد في دنقلا العجوز الذي ظل مستخدمًا بصورة متواصلة منذ إنشائه في أوائل القرن التاسع الميلادي وحتى إغلاقه عام 1969م. وعلى الرغم من التحوّل الديني، لم تُتلف الرسوم الجدارية المسيحية، بل جرى تغطيتها، في مؤشر على التعامل باحترام مع الوظيفة الدينية السابقة للمكان. شهد المبنى أعمال ترميم مهمة في أواخر القرن الثامن عشر على يد الشيخ ساتي محمد عيسى سوار الذهب، الذي لا يزال قبره محل زيارة من السكان المحليين، كما واصلت ذريته أداء دور مشيخة دنقلا العجوز، مع إقامتهم في منطقة الغدار واعتنائهم بضريحه. وخلال فترة الحكم الثنائي الإنجليزي-المصري، خضعت أسقف المبنى لعدة عمليات ترميم، خاصة بين عامي 1927م و1955م، ضمن جهود المحافظة على هذا الأثر

التاريخي(15). وتذهب بعض الآراء بأن هذا المبنى شُيِّد في القرن العاشر الميلادي كقصرٍ ملكيٍّ مخصَّص لاستقبال ضيوف ملك دنقلا. ورغم تحويله لاحقاً إلى مسجد في عام 1317م في عهد عبد الله برشمبو، أول ملوك دنقلا المسلمين، ظل استخدامه الديني محدوداً، بينما حافظ المبنى على طابعه الوظيفي الأصلي، ويُرجَّح أنه استُخدم لاحقاً كمخزن ومحطةٍ لاستضافة الحجاج المسلمين في طريقهم إلى مكة(16)،(صورة رقم2). ولكن يبقى السؤال قائماً حول هذه اللوحة وتاريخ كتابتها، وهل الموقع الحالي هو نفس الموقع الأصلي للوحة.



صورة رقم(2)، القصر الملكي (المبنى الغامض) في دنقلا ويظهر الطابق الثاني الذي تم تحويله لمسجد(17)

الخاتمة:

تشير الدراسات التاريخية والأثرية إلى أن مسجد عبد الله بن أبي السرح في دنقلا يظل موضوعاً جدلياً بين الباحثين. فقد استندت بعض الروايات التاريخية إلى الاتفاقيات الإسلامية المبكرة، مثل اتفاقية البقط، للإشارة إلى وجود مسجد في دنقلا منذ القرن السابع الميلادي. إلا أن الدراسات الأثرية الحديثة لم تؤكد هذا الادعاء، إذ أظهرت أن المبنى المفحوص يعود لفترة لاحقة ويقع فوق مقابر مسيحية، مما يرجح أنه كان خلوة أو قبراً لرجل صالح، ولم يكن مسجداً تمارس فيه الشعائر الدينية بشكل مستمر. كما تتفق معظم الدلائل التاريخية والاثارية إلى أن ما يُعرف اليوم باسم مسجد دنقلا (مسجد الملك النوبي عبد الله برشمبو) كان في الأصل كنيسة أو قصرًا ملكيًا من القرن العاشر الميلادي، واستخدم لاحقًا جزئيًا كمكان للعبادة بعد التحول الديني في القرن الرابع عشر الهجري/الميلادي، مع الحفاظ على الطابع التاريخي للمبنى، مما في ذلك الرسوم الجدارية المسيحية.

وبناءً على ذلك، يمكن القول إن مسجد عبد الله بن أبي السرح ليس أول مسجد تاريخي في دنقلا بالمفهوم التقليدي، وأن الروايات الشفاهية والتاريخية يجب التعامل معها بحذر، مع التأكيد على ضرورة اعتماد التحليل الأثري والمصادر المتعددة لتقييم مدى صحة وجود الممارسة الإسلامية المبكرة في المدينة.

وتظل هذه الدراسة مثالاً على أهمية المقاربة التاريخية-الأثرية المتكاملة لفهم التحولات الدينية والمعمارية في المدن النوبية القديمة، وإعادة تقييم الصور التقليدية للوجود الإسلامي المبكر في السودان والتحقق من طبيعة المباني الأثرية وأغراضها. كما توصي الدراسة بمزيد من البحوث الأثرية المكثفة في مناطق شمال السودان والمدن الكبرى في الفترة المسيحية، لا سيما أن هناك روايات متعددة تشير إلى مواقع أخرى محتملة لمسجد عبد الله بن أبي السرح.

المصادر والمراجع:

- (1) See: Jakobielski ,S & .Scholz ,O 35 ,(2001) .Jahre Polnischer Forschungen im Zentrum des makuritischen Reiches Dongola-Studien ,Warsawa.
- (2) <https://www.google.com/url?q=https://ar.>
- (3) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي أبو العباس (ت892هـ)، فتوح البلدان، القاهرة: مسعد، مصطفى محمد، المكتبة السودانية العربية - مجموعة النصوص والوثائق العربية الخاصة بتاريخ السودان في العصور الوسطى، جامعة القاهرة بالخرطوم، 1972م، ص25-27.
- (4) نفس المصدر، ص25-27.
- (5) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله (ت871هـ)، فتوح مصر والمغرب، القاهرة، في: مسعد، 1972، ص8.
- (6) شبا، عوض أحمد حسين (2008م)، دنقلا والداقلة، ط1، الخرطوم: مطبعة العملة، ص38.
- (7) ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص8.
- (8) المقرئزي، أحمد بن علي (ت1445هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، في: مسعد، 1972، ص302-302.
- (9) الياس، أحمد، (صلح عبد الله بن أبي السرح مع مملكة نوباتيا عام310هـ-652م)، مجلة حروف، جامعة الخرطوم، ع2-3 مزدوج، مارس 1990-1991م، ص119-121.
- (10) نفس المرجع.
- (11) الحاكم، أحمد محمد علي (1985)، "الأبحاث الأثرية وما يتعلق بعلاقة الجزيرة العربية بالسودان في زمن الخلفاء الراشدين"، دراسات أفريقية، ع1، ص172-175.
- (12) Eissa ,Kh (1990) .The so-called' Abdullah ibn Abi Sharh Mosque at Old Dongla , "Études nubines ,Conférence de Genève 8-3 ,September ,pp283-275 ..
- (13) شبا، عوض أحمد حسين (2008م)، الإسلام في دنقلا - مدخل لدراسة تاريخ الإسلام في السودان، الخرطوم: مطبعة العملة.

(14) نفس المرجع

(15) تومومي فاشيا، دنقلا العجوز من القرون الوسطى، ترجمة: عوض جابر، ، وارسو: المركز البولندي لآثار البحر الأبيض المتوسط، جامعة وارسو، 2021، ص11-14.

(16) Tomomi Fushia ، Old Dongola :Continuity and Change from the Medieval Period to the21 st Century

(17) جيوفاني فانيني، إعادة اكتشاف تاريخ النوبة القديم، تعريب وتحقيق فيلوثاوس فرح وآخرين، الخرطوم: كلية كمبوني للعلوم والتكنولوجيا، 2013، ص139.

(18) <https://share.google3/WTeg6KMQxhXbOdd8>.